الإسلام دين غير طائفي

obeikan.com

obeikan.com

الإسلام دين غير طائفي

يحلو للمثقفين المغتربين دائمًا ـ أن يتحدثوا عن الطائفية ـ والحكم الديني ـ والثيوقراطية وغيرها من المصطلحات، كلما ظهر الحديث عن المشروع الإسلامي لبناء المجتمع أو استلهام الإسلام في العملية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ويصل الفجور بهؤلاء المغتربين أن يتحدثوا عن الطائفية ـ كلما ظهرت الدعوة إلى قيام حزب إسلامي، ويملأون الدنيا ضجيجًا مطالبين بعدم قيام أحزاب على أسس دينية.

وهؤلاء يتعمدون الخطأ مرتين:

أولاً: لأنهم ينظرون إلى الإسلام بمنظور غربي ووفقًا للتراث الفكري للغرب ـ ويريدون أن يطبقوا تلك المفاهيم على الإسلام والمسلمين، مع أن الفارق التاريخي والموضوعي والاجتماعي مختلف تمامًا بمقدار الاختلاف بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

وثاني الخطأين: أن الغرب ذاته يترك حرية قيام الأحزاب على أسس دينية ولا يمنعها ـ وهناك الكثير من الأحزاب المسيحية في دول أوروبا وأمريكا بل وفي دول آسيوية كالهند.

ولا ندري لماذا يؤمن هؤلاء بكل قيم الغرب حتى إذا جاءوا إلى مسألة الأحزاب الدينية تخلوا عن قيمهم تلك فجأة في هذا الصدد وحده؟

ولو أنهم تخلوا عن قيم الغرب كلها مع هذه المسألة لحمدنا لهم هذا المسلك وإذًا لأراحوا واستراحوا، ولكنه العداء للحضارة الإسلامية ونمط الحكم الإسلامي لا أكثر ولا أقل.

والحقيقة أن قيام أحزاب على أسس إسلامية أمر مطلوب ومشروع على كل مستوى، فكما رأينا وحتى بمقياس هؤلاء ووفقًا لقيمهم المستمدة من الحضارة الغربية فإن قيام تلك الأحزاب أمر وارد.

وحتى على مستوى فهمهم المتناقض. فإنه أيضًا لا حجة لديهم في هذا المنع فلو كان الخوف من قيام أحزاب إسلامية هو خوف من الطائفية، لكان هذا أمرًا عجيبًا يدل على مدى جهلهم بالإسلام، فمن قال لكم إن الإسلام دين طائفي ـ ومن قال لكم إن الحركة الإسلامية أو الحزب الإسلامي حزب طائفي.

ولو كان خوفهم من هذا الأمر هو الخوف من إثارة حساسية المسيحيين أو غيرهم في مصر لكان هذا أمرًا أعجب. فالواقع أن الأقباط بالتحديد ينتمون إلى الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية، وبالتالي فالحزب الإسلامي هو حزب للمسلمين والمسيحيين وغيرهم على حد سواء.

بل أكثر من هذا فمن الممكن قيام حزب يدافع عن انتماء مصر الإسلامي ويدافع عن الشريعة الإسلامية ويدعو إلى الحضارة الإسلامية ويكون كل أعضائه من الأقباط.

على أي حال، فلنتكلم في البديهيات ولا حول ولا قوة إلا بالله. ومن تلك البديهيات أن الإسلام دين غير طائفي، بل هو دين عالمي. جاء لكل البشر وليس خاصًا بقوم أو مجموعة تاريخية أو جغرافية أو قومية أو جنسية أو عرقية، بل هو يدعو إلى إلغاء الفروق بين البشر ـ ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ «الحجرات: ١٣». ويرفض التمييز العنصري والقومي والجنسي ويحرم ذلك تحريمًا.

والإسلام أساسًا دعوة لحرية الاختيار ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ «البقرة: ٢٥٦».

فهو يرفض إكراه الناس حتى على الإسلام، بل ولا يقبل الله تعالى إيمانًا قائمًا على الإكراه.

والأمة الإسلامية ليست ملزمة بإكراه الآخرين على الحق، بل هي منهية عن ذلك الإسلام ـ هو الدين الحق الذي نزل به آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد عليه السلام ـ بل ونزل به كل الرسل والأنبياء.

والإسلام يضع للإنسان تصوراً غير طائفي بالمرة، فالإنسان مستخلف في هذا الكون ـ وهذا الكون مسخر للإنسان.

والله تعالى قد أخذ على الإنسان ميثاقًا قبل أن يبعثه في الأرض، وهو ميثاق الذراري: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾، إذن فمعرفة الله تعالى والإيمان به مركوزة في فطرة الإنسان وفي وعيه قبل أن ينزل إلى الأرض.

والله تعالى قد خلق الكون وصممه وبث فيه من الآيات والحكمة ما يقود الإنسان إلى معرفة الله والتسليم بقدرته وجلاله.

وأعطى الله تعالى للإنسان عقلاً وجعله سميعًا بصيراً. ليستطيع بهذا العقل أن يهتدي إلى وجود الله ويؤمن بقدرته وجلاله.

إذن فمعرفة الله تعالى والإيمان بوجوده وقدرته وجلاله أمر سهل وميسور وبديهي ولا يحتاج إلى عناء ـ فالفطرة تقود إليه. والكون والعقل أيضًا.

ولكن الشيطان وأتباعه يفعلون كل شيء لمنع هذا الإيمان. وليس أمامهم إلا وسائل القمع والظلم والتحريف لأداء تلك المهمة.

القوى الشيطانية تدرك أن الفطرة والكون والعقل يقودون إلى معرفة الله والإيمان به وبقدرته وجلاله. أي يقودون إلى الإسلام. عن طريق مجرد التفكير البسيط أو الوجدان البسيط.

إذن فلا بد من منع حرية التفكير والشرشرة على الفطرة والوجدان، إذًا لا بد من استبداد سياسي، لا بد من منع حرية التفكير والتدبر. وحرية المناقشة والحوار. ولا بد

من استخدام وسائل الإعلام لتلقين الناس قيمًا وحقائق مزيفة، ومن يجرؤ على الخروج عن هذا فالسجن أو الشنق بانتظاره.

إذن فمهمة الرسل عليهم السلام ـ والعلماء والدعاة. وكل مسلم ليس إقناع الناس بالإسلام أو إكراههم عليه. ولكن مهمتهم هي رفع الحجر الفكري والقمع والاستبداد وتحقيق الحرية ـ فإذا ما تحققت الحرية ـ فإن الناس يصلون إلى الإسلام بمنتهى البساطة عن طريق الفطرة والكون والعقل.

الإسلام إذن في جوهره ثورة من أجل الحرية، ثورة على الاستبداد السياسي والفكري.

ففرعون وأبو جهل وغيرهما يقولون ﴿ما أُريكُم إلاَ ما أرىٰ وما أهديكُم إلا سبيل الرشاد﴾ «غافر: ٢٩».

ومحمد عليه السلام وغيره من الرسل يقولون ﴿ أفلا تعقلون ﴾، ﴿ أفلا تتدبرون﴾ ﴿أفلا تتفكرون ﴾، ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾.

فرعون يقمع الناس على رأيه وفكره. ومحمد صلى الله عليه وسلم يدعو إلى التدبر والعقل والتفكر.

مهمة القوى الشيطانية أن تخلق أوضاعًا اقتصادية وطبقية لا تدع للناس حرية أو وقتًا للتفكير، فهناك مستكبرون ومستضعفون ـ هناك مترفون ومحرومون لتظل الثروة والسلطة في يد القوى الشيطانية.

ويظل المحرومون والمستضعفون أسرى الحرمان والجري وراء لقمة العيش واستجدائها من المستكبرين ـ بما يترتب على ذلك من تبعية فكرية لهم ـ وبما يترتب عليه من حرمان من الصحة والتعليم وتلبية الحاجات الضرورية اللازمة للتفكير السليم وللجسم السليم وللعقل السليم.

ومهمة الرسل والعلماء وكل مسلم أن يتصدى لرفع الظلم الاقتصادي

والاجتماعي والطبقي، ويعطي لكل إنسان حقه في حياة كريمة تحقق له الأمان والصحة الجسدية والعقلية والنفسية.

فإذا ما تحقق مجتمع العدالة. ووجد الناس حاجاتهم الطبيعية ـ اهتدوا إلى الإسلام ببساطة لأنه دين الفطرة والعقل، فالإسلام هنا ثورة على الظلم الطبقي والاجتماعي والاقتصادي.

القوى الشيطانية تعمل على نشر الجهل والخرافات والأفكار المنحرفة مثل الدعوات القومية والعرقية والجنسية والتعصب للقبيلة أو للوطن أو للقومية أو تفوق جنس على جنس أو عرق على عرق أو لون على لون.

أما الأنبياء والعلماء وكل مسلم ـ فهو يدعو إلى عالمية رحبة. وأخوة شاملة، ويرفض كل هذه الأفكار الضيقة والظالمة. والإسلام يدعو إلى العلم والنور:

﴿إنّ أكْرَمكُمْ عند الله أتْقاكُمْ﴾، (الحجرات: ١٣)، «لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى أي بالعمل الصالح النافع المفيد». «كلكم لآدم وآدم من تراب» .

والقوى الشيطانية تستغل بعض رجال الدين المرتزقة لتزييف وتحريف وتزييف معانيها.

وتدعو إلى التمسك بهذه الأشياء المحرفة بدعوى التمسك بتراث الأجداد ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾.

أما الأنبياء والعلماء وكل مسلم فهم يرفضون التقليد الأعمى. ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾.

إذن فالإسلام في جوهرة ثورة ضد الاستبداد والقمع ـ ثورة ضد الظلم الاقتصادي، ثورة ضد الأفكار الضيقة والمنحرفة، ثورة ضد حكم رجال الدين أو تحالف رجال الدين مع السلطة الغاشمة، ثورة ضد التقليد الأعمى.

وهذا الإطار يجعل من الطبيعي واللازم ـ أن ينخرط كل مستضعف وكل مظلوم

وكل مقهور في النضال مع الإسلاميين بصرف النظر عن انتمائه الديني ـ ويجعل من الطبيعي أن ينخرط في هذا النضال كل من يؤمن بالحرية والعدالة ويرفض الاستبداد والظلم والتمييز العنصري أو العرفي ـ كل من يدعو إلى العلم ويرفض الجهل والخرافات.

إذن ففي الإسلام متسع كبير جدًا لغير المسلمين أن ينخرطوا في النضال من خلال الأمة الإسلامية أو الحزب الإسلامي. والإسلام ذاته يفرض على المسلمين أن ينحازوا ويتحالفوا مع كل دعوة للعدل أو كل فئة مظلومة أو كل جماعة محرومة أو مضطهدة. إذن أين الطائفية هنا!

إن هؤلاء الذي يتكلمون عن الطائفية لم يفهموا الإسلام، أو قل لا يريدون أن يعترفوا بالحقيقة، فما بالك إذا كان الأقباط في مصر ينتمون إلى الحضارة الإسلامية؟ إذن فهم لا يجدون غضاضة في الانخراط في جهاد وحركة الأمة الإسلامية أو الحركة الإسلامية أو الحزب الإسلامي.

وقد حدث هذا دائمًا أثناء الحكم الإسلامي، وبعد سقوط الخلافة أيضًا وبالتحديد مع الأفغاني وعرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد حسين والشهيد حسن البنا وفي إطار تحالف العمل مع الإخوان المسلمين وجدنا الأقباط على رءوس قوائم هذا التحالف، وسوف نفصل كل هذا في فصول تالية بإذن الله تعالى.

التراث الإسلامي فيما يخص الأقليات عمومًا والأقباط خصوصًا تراث عظيم ورائع.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ـ ليس بيني وبينه نبي ـ والأنبياء أولاد علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**». وقد بشر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بفتح مصر وأوصى بقبطها خيرًا حيث قال: «**إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحمًا**».

والوثيقة التاريخية الهامة التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم لأهالي نجران تشهد على عدل الإسلام ورحمته، وقد جاء فيها «ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة

رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم وبيعهم ورهبانهم وأساقفهم وشاهدهم وغائبهم، وكل ما تملك أيديهم ؟ قليل أو كثير، وعلى أن لا يغيروا أسقفًا من سقيفاه، ولا واقها من واقيهاه، ولا راهبًا من رهبانيته، وعلى ألا يحشروا ولا يعشروا ولا بطأ أرضهم جيش ـ ومن سأل منهم حقًا فالنصف بينهم بنجران على ألا يأكلوا الربا، فمن أكل الربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معنون عليهم شهد بذلك عثمان بن عفان ومعقيب» وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ سار أبو بكر الصديق رضي الله عنه على نفس المنهج ـ فكتب لأهل نجران كتابًا حذا فيه حذو الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعطى عمر لأهل إيلياء في بيت المقدس كتابًا جاء فيه (هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولاشيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وأن يخرجوا منها الروم واللصوص ـ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم).

بل إن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ قام وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التي على بابها عندما حانت الصلاة، وقال للبطريرك ـ لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي.

ويقول ساويرس بن المقنع (إن عمرا بن العاص عندما دخل مصر فاتحًا كان بطريرك الاقباط مختفيًا من وطأة الاستبداد البيزنطي، فكتب عمرو بن العاص إلى عمال مصر كتابًا يقول فيه:

(الموضع الذي فيه بنيامين بطريرك النصارى له العهد والأمان والسلامة من الله، فليحضر آمنًا مطمئنًا ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته).

وتحكى المصادر التاريخية أنه في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قام الوليد عبد الملك بهدم جزء من كنيسة يوحنا ليضيفه إلى المسجد الأموي بدمشق، فشكا إليه النصارى ذلك، وعرض المسلمون أن يدفعوا تعويضًا للكنيسة، فأصدر عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه قرارًا بهدم جزء من هذا المسجد ورده إلى الكنيسة وعندما تباطأ والي دمشق في التنفيذ أصدر عمر بن عبد العزيز قرارًا جديدًا حدد فيه اليوم والساعة التي يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم.

ولم يكن كل هذا إلا ترجمة أمينة لروح الإسلام ووصايا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يقول «من ظلم معاهدًا أو ذميًا فقد آذاني ».

وإذا قارنا ذلك التسامح الإسلامي بتاريخ الاضطهاد الديني في أوروبا نجد أن هناك فرقا شاسعًا، فالاضطهاد الديني علم على أوروبا قديمها وحديثها، فالرومان اضطهدوا المسيحيين في بداية ظهور المسيحية أيما اضطهاد، بل وعندما دخلت الدولة الرومانية في المسيحية حولتها إلى مسيحية وثنية ولم يتوقف الاضطهاد الديني وانصب هذه المرة على المسيحيين المخالفين في المذهب لمذهب الدولة الرومانية.

واشتدت عمليات القتل والتحريض للمسيحيين المخالفين للمذهب الرسمي للدولة الرومانية حتى إنه في بلد مثل مصر سقط آلاف القتلى حرقا وتعذيبا وتنكيلاً على يد السلطة الرومانية لدرجة أن التراث الكنسي المصري يسمى هذا العصر عصر الشهداء، وبعد ذلك تحولت الكنائس الأوروبية إلى مؤسسات للقهر والنهب، فمارست الاضطهاد للآخرين ونهبت الأتباع تحت مسميات مختلفة مثل صكوك الغفران، وتحالفت مع الأمراء ودخلت في صراعات مستمرة داخل أوروبا، وظهرت محاكم التفتيش من خلال الكنائس الأوروبية واضطهدت هذه المحاكم المخالفين في الدين كالمسلمين واليهود، وأصحاب الديانة المسيحية أنفسهم ممن كانت لهم آراء علمية أو فلسفية وعندما ظهر المذهب البروتستانتي تعرض أتباعه إلى عملية اضطهاد

قاسية فقتلوا وحرقوا على يد الكاثوليك وعندما تمكن البروتستانت في بعض البلدان الأوروبية قاموا بدورهم بتنظيم المذابح للكاثوليك.. وهكذا بل وهناك حروب دينية استمرت عشرات السنين وحتى في الأيام الأخيرة وجدنا الاضطهاد الديني الأوروبي على قدم وساق، فالفرنسيون اضطهدوا المسلمين في الجزائر، والصرب يذبحون اليوم المسلمين في البوسنة والهرسك ويشاركهم في ذلك الكروات ويبارك عملهم بالصمت أو بغيره المجتمع الأوروبي بأسره وهكذا فالاضطهاد الدينى سمة مميزة للحضارة الغربية في كل مراحلها.

يقول شكيب أرسلان في كتابه حاضر العالم الإسلامي (إن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال الدولة في أوروبا فيما يتعلق بموضوع التعصب، فقال لهم الوزير العثماني، إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا، ولو كنا قادرين على استئصالهم، ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا تبقى بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام، فما هجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلا، وكان إذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا، كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة، ويحاجه مثل زنبيلي علي أفندي شيخ الإسلام ويقول له بلا محاباة ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم، فيرجع السلطان عن عزمه امتثالا للشرع الحنيف، فبقي بين أظهرنا حتى أبعد الفرق وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس، وكانوا كلهم وافدين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أما أنتم معاشر الأوروبيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد واشترطتم عليه إذا بقى بينكم أن ينتصر ولقد كان في أسبانيا ملايين وملايين من المسلمين وكان في جنوب فرنسا وفي شمال إيطاليا وجنوبها مئات الألوف منهم، ولبثوا في هذه الأوطان أعصرا مديدة، ولا تزالون تستأصلونهم حتى لم يبق في هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام ولقد طفت ببلاد أسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم).